ابن الأبار الشاعر

يذكر من يترجمون ابن الابار ، قبل كنيته ، عددا من الصفات التى يعرف بها وتشير الى مكانته العلمية والادبية. فيقول مؤلف أزهار الرياض [1] : « هو الفقيه الاجل ، الكاتب الحافل ، الراوية المحدث ، الفاضل الناقد البارع ، الحافظ الكامل ، ابو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعى البلنسى المعروف بابن الابار » .

ويصفه ابن خلدون [2] بأنه « كان علامة فى الحديث ولسان العرب ، وبليغا فى الترسيل والشعر . . . » .

ويصفه محمد بن شاكر الكتبى [3] بانه كان « عالما بالتاريخ ،

---

(1) صفحة 204 من الجزء الثالث.

(2) كتاب ديوان العبر . . . . الخ

(3) فوات الوفيات ، صفحة 126 من الجزء الثانى .

اما في العربية ، فقيها مفتيا ، اخباريا فصيحا، له يد في البلاغة والانشاء . . . » .

وفي دائرة المعارف الاسلامية يكتفي مؤلف ترجمته بانه مؤرخ عربي . ويصفه الاستاذ ليفي بروفنصال بانه أديب (1) أندلسي مشهور ، وكاتب تراجم .

ويذكره الاستاذ نيكل (2) *Nykl* في كتابه « الشعر العربي الاندلسي » ويقول عنه : « انه كان مؤرخا اكثر منه اي شخص آخر . . . » .

ولا نجد فيما كتب بالعربية عن «الادب العربي بالاندلس» ذكراً لابن الابار على انه شاعر شهير . ولكن هذا كله لا ينفي ان ابن الابار شاعر من طراز لم يتخذ الشعر مهنته ، ولا برز فيه . وهو شاعر لانه قرض الشعر وحاوله ، واجاد بعض محاولاته ، وبقيت بعض قصائده خالدة مؤثرة .

ونحن لانريد ان نحرمه صفة الشاعرية، ولا نستطيع ذلك

---

(1) صفحة 41 هامش رقم 1 من كتاب : La Peninsule Ibérique Au Moyen , Age , D , aprés kitab ARRawd Al - Mitâr .

(2) صفحة 382 من كتاب : Hispano - Arabie poetry

ولو أردناه . وقد ذكرت فى باب « ابن الابار الكاتب » انه اتخذ الشعر هواية له ولم يتكسب به، وهو لهذا كاتب ومؤرخ وناثر قبل ان يكون شاعرا ولعله من الخير ان برز فى النواحى التى مال اليها بطبيعته ، وأعدته لها فطرته وظروفه ، دون ان يقحم نفسه اقحاما فى ميدان الشعر ، فيحاول ان ينافس الشعراء من الطبقة الاولى أو الثانية . انه لم يفعل ذلك ولكنه قرض الشعر حين أحس بالميل الى قرضه، وحين دفعه اليه شيطانه او ملاكه .

ولم يكن ابن الابار بدعا فى محاولته الشعر بالرغم من نبوغه فى كتابة الرسائل وفى التاليف . فقد كان نظم الشعر نوعا من التعبير [1] اللغوى الموزون المقفى ، جائز المحاولة لكل

---

(1) النظرية النفسية الحديثة هى ان كل انسان عادى يستطيع ان يعبر عن احاسيسه وافكاره بعبارة شعرية موزونة مقفاة او غير مقفاة، وغير مؤزونة . فالعبرة اذاً بالخيال الجميل الذى يعرض الفكرة فى صورة من اللفظ او الاسلوب مغرية مطربة . ولقد يعبر المرء عن فكرته الجميلة فى عبارة منثورة تفوق الشعر ، وعلى قدر الخيال المبدع والقدرة على الوصف، والتعبير اللغوى يكون جمال الشعر . واذاً فلكل انسان قدرة شعرية، ولكنها تختلف من فرد لفرد، ومن ثم كان الاختلاف فى الانتاج ، فكل فرد يستطيع ان يغنى وليس كل فرد مغنيا ، وكل فرد يستطيع ان يصور، وليس كل فرد مصورا ،وبكثرة المران والمحاولة ينطلق وينمو عند الفرد ما لديه من =

كاتب أو أديب دون حاجة الى النبوغ فيه. وقلّ ان نجد من كتاب العربية او علمائها [1] وفقهائها وأمرائها من لم يعان قرض الشعر ، ومن لم يرم فيه بسهم . وقد كانت العادة ان يمزج الكاتب المنثور من كلامه بالمنظوم ، حتى لقد صارت بعض الرسائل ـ كالمقامات [2] .. خليطا من النثر والنظم، وصار اسلوب النثر شبيها بالنظم .

فلا عجب بعد هذا أن نصف ابن الابار بأنه شاعر، وان نتعرض هنا لدراسة ما وصلنا من شعره، ونقده وتقديره. ولعل القصيدة الخالدة التى سيظل اسمه مقرونا بها مشهورا، هى تلك

= مواهب طبيعية . (انظر كتاب : Education of poetic esperit . by Marjorie Hourd

(1) انظر الاغانى والعقد الفريد ونهاية الارب ، والكامل، والحلة السيراء، والغصون اليانعة وأمثالها من كتب الادب الملأى بالروايات الشعرية واسماء من قرضوا الشعر من الادباء غير المخلدين.

(2) اعنى مقامات بديع الزمان الهمذانى والحريرى والسيوطى، وما كتب بالاندلس والمغرب من مقامات مثل : خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف وهى وصف لرحلة الامير ابى الحجاج فى غرناطة (صفحة 14 Beiträge Müller) ، ومقامات ابى حفص عمر بن الشهيد (راجع صفحة 34 من بلاغة العرب فى الاندلس ، الهامش رقم 2)

التى خاطب بها الامير ابا زكريا سلطان تونس ، حينما ذهب ليستنجده لحماية بلنسية . وهى قصيدة معروفة نذكرها هنا بنصها لقيمتها الادبية قال :

ادراك بخيلك خيل الله اندلسا ... ان السبيل الى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
وحاش مما تعانيه حشاشتها ... فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً ... للحادثات، وأضحى جدها تعسا
فى كل شارقة المام بائقة ... يعود مأتمها عند العدا عرسا
وكل غاربة اخجال [1] شائبة ... تثنى الامان حذاراً والسرور أسى
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم ... ولا عقائلها المحجوبة الانسا
وفى بلنسية منها وقرطبة ... ما ينسف النفس اوما ينزف النفسا
مدائن حلمها الاشراك مبتسما ... جذلان، وارتحل الايمان مبتئسا
وصيرتها العوادى العابثات [2] بها ... يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا
فمن دساكر كانت دونها حرما ... ومن كنائس كانت قبلها كنسا
يا للمساجد عادت للعدا بيعا ... وللنداء غدا أثناءها جرسا
لهفى عليها الى استرجاع فائتها ... مدارسا للمثانى أصبحت درسا
وأربعاً غنمت أيدى الربيع لها ... ما شئت من خلع موشية وكسا
كانت حدائق للاحداق مونقة ... فصوح النصر من أدواحها وعسا
وحال ما حولها من منظر عجب ... يستجلس الركب او يستركب الجلسا

(1) وفى رواية : اجحاف نائبة (2) وفى رواية، الحادثات .

سرعاذما عاث جيش الكفر واحربا ... عيث[1] الدبا فى مغانيها التى كبسا
وابتز بزتها مما تحيفها ... تحيف الاسد الضارى لما افترسا
فأين عيش جنيناه بها خضرا ... وأين عصر جلیناه بها سلسا
محا محاسنها طاغ اتيح لها ... ما نام عن هضمها حينا ولا نعسا
ورج ارجاءها لما أحاط بها ... فغادر الشم من اعلامها خنسا
خلا له الجو فامتدت يداه الى ... ادراك ما لم تطأ رجلاه مختلسا
وأكثر الزعم بالتثليث منفرداً ... ولو رأى رتبة التوحيد ما نبسا
صل حبلها، أيها المولى الرحيم، فما ... أبقى المراس لها حبلا ولا مرسا
وأحى ما طمست منها العداة كما ... احييت من دعوة المهدى ما طمسا
أيام صرت لنصر الحق مستبقا ... وبت من نور ذاك الهدى مقتبسا
وقمت فيها بأمر الله منتصرا ... كالصارم اهتز اوكالعارض انبجسا
تمحو الذى كثف التجسيم من ظلم ... والصبح ماحية انواره الغلسا
وتقتضى الملك الجبار مهجته ... يوم الوغى، جهرة لا تقبل الخلسا
هذى رسائلها تدعوك من كثب ... وأنت أفضل مرجو لمن يئسا
وافتك جارية بالنجح راجية ... منك الامير الرضا، والسيد الندسا[2]
خاضت خضارة[3] يعليها ويخفضها ... عبابه، فتعانى اللين والشرسا
وربما سبحت، والريح عاتبة، ... كما طلبت بأقصى شده الفرسا
تؤم يحيى بن عبد الواحد بن ابى ... حفص مقبلة من تربه القدسا

---

(1) العيث الفساد والتدمير.
(2) الندس: القطن الكيس.
(3) يعنى خاضت هذه السفن اليك البحر الشامى المتوسط.

ملك تقلدت الامـلاك طـاعته ... دنيا ودينا ، فغشاها الرضا لبسا
من كل غاد على يمناه ملتثما ... وكل صاد الى نعماه ملتمسا
مؤيد لو رمى نجما لاثبته ... ولو دعا أفقا لبى وما احتبسا
تا لله ان الذى تزجى السعود له ... ما جال فى خلد يوما ولا هجسا
امارة يحمل المقدار رايتها ... ودولة عزها يستصحب القعسا[1]
يبدى النهار بها من ضوئه شنبا ... ويلمع الليل من ظلمائها لعسا
ماضى العزيمة والايام قد نكلت ... طلق المحيا ووجه الدهر قد عبسا
كأنه البدر والعلياء هالته ... تحف من حوله شهب القنا حرسا
تدبيره وسع الدنيا وما وسعت ... وعرف معروفه واسى الورى وأسا
قامت على العدل والاحسان دولته ... وانشرت من وجود الجود مارمسا
مبارك الهديه ، باد سكينته ... ما قام الا الى حسنى وما جلسا
قد نور الله بالتقوى بصيرته ... فما يبالى طروق الخطب ملتبسا
برى العصاة وراش الطائعين فقل ... فى الليث مفترسا والغيث مرتجسا
ولم يغادر على سهل ولا جبل ... حيا لقاحا اذا وافيته بخسا
فرب أصيد لا تلفى به صيداً ... ورب أشوس لاتلقى به شوسا
الى الملائك ينمى والملوك معاً ... من نبعة اثمرت للمجد ما غرسا
من ساطع النور صاغ الله جوهره ... وصان صيقله أن يقرب الدنسا
له الثرى والثريا خطتان ، فلا ... اعز من خطتيه ما سما ورسا
حسب الذى باع فى الاخطار ركبها ... اليه محياه ان البيع ما وكسا

---

(1) العزم القوى النافذ .

ان السعيد امرؤ القى بحضرته ... عصاه ، محترما بالعدل محترسا
فظل يوطن من أرجائها حرما ... وبات يوقد من اضوائها قبسا
بشرى لعبد الى الباب الكريم حدا ... آماله، ومن العذب المعين حسا
كانما يمتطي واليمن يصحبه ... من البحار طريقا نحوه يبسا
فاستقبل السعد وضاحا أسرته ... من صفحة فاض منها النور وانعكسا
وقبل الجود طفاحا غواربه ... من راحة غاص فيها البحر وانغمسا
يايها الملك المنصور أنت لها ... علياء توسع أعداء الهدى تعسا
وقد تواترت الانباء انك من ... يحيى بقتل ملوك الصفر اندلسا
طهر بلادك منهم انهم نجس ... ولا طهارة ما لم تغسل النجسا
وأوطىء الفيلق الجرار أرضهم ... حتى يطأطىء رأسا كل من رأسا
وانصر عبيداً بأقصى شرقها شرقت ... عيونهم ادمعا تهمي زكا[1] وخسا
هم شيعة الامر وهي الدار قد نهكت ... داء، متى لم تباشر حسمه انتكسا
فاملأ هنيئا لك التأييد ساحتها ... جرداً[2] سلاهب او خطية دعسا
واضرب لها موعداً بالفتح ترقبه ... لعل يوم الاعادي قد اتى وعسى

وقال يوثو أستاذه ابا الربيع[3] الكلاعي لما قتل في موقعة أنيشة يوم الخميس 2 ذي الحجة سنة 634 :

---

(1) الزكا الزوج والخسا الفرد .

(2) خيلا سباقا .

(3) من صفحة 586 ، الجزء الثاني من نفح الطيب وصفحة 32 من كتاب صفة جزيرة الاندلس منتخبة من الروض المعطار .

ألما بأشلاء العلا والمكارم تقد بأطراف القنا والصوارم
وعوجا عليها مأربا ومفازة مصارع خصت[1] بالطلا والجماجم
نحيي وجوها في الجنان وجيهة مجاسد من نسج الظبا[2] واللهازم

وهي قصيدة طويلة منها :

سقى الله اشلاء بسفح أنيشة سوافح تزجيها ثقال الغمائم

ومنها :

اضاعهم يوم الخميس حفاظهم وكرهم في المأزق المتلاحم

ومنها :

سلام على الدنيا اذا لم يلح بها محيا سليمان بن موسى بن سالم

وروى ابن سعيد قال :

كانت لي مع ابن الابار مجالسات في بجاية آنق من الشباب، وأبهج من الروض عند نزول السحاب، ومما انشدنيه من شعره :

يا حبذا بحديقة دولاب سكنت الى حركاتها الالباب
غنى ولم يطرب وسقى وهو لم يشرب ومنه العود والاكواب

---

(1) الطلا : الاعناق (5) جمع ظبة . وهي اطراف السيوف .

او يدعى لطف الهواء والهوى ما كان فى تصديقه مرتاب
وكأنه مما شدا مستهزىء وكأنه مما بكا ندّاب
وكأنه بنثاره ومداره فلك كواكبه له أذناب

وقد يتوقع القارىء من عبارة ابن سعيد، أنه كان له مع ابن الابار مجالسات آنق من الشباب، وأبهج من الروض عند نزول السحاب ان تكون هذه المجالس مجالس لهو وطرب، وشرب ودعابة، ولكن هذا الشعر الذى أنشده ابن الابار ابن سعيد يبين نوع هذه المجالسات، فهى من النوع الادبي الجاف .

ومن شعره يصف الياسمين :

حديقة ياسمين لا تهيم بغيرها الحدق
اذا جفن الغمام بكى تبسم ثغرها اليقق
كأطراف الاهلة سا ل فى أثنائها الشفق

وكتب الى الوزير أبى عبد الله بن ابى الحسين سعيد، وكان فى تونس، يستدعى منه منثورا :

الك الخير انحفنى بخيرى روضة لانفاسه عند الهجوم هبوب
أليس أديب الروض يجعل ليله نهاراً فيذكو تحته ويطيب

ويطوى مع الاصباح منشور نشره كما بان عن ربع المحب حبيب

أهيم به عن نسبة أدبية ولا غروان يهوى الاديب اديب

وابو عبد الله بن الحسين سعيد هذا ، هو الذى وقع بينه وبين ابن الابار من سوء التفاهم ما جعله يدس له عند سلاطين الحفصيين.

وقال عند الخسوف :

نظرت الى البدر عند الخسو ف وقد شين منظره الازين

كما سفرت صفحة للحبيـــب يحجبها برقع أدكن

ومن شعره :

من عاذرى من بابلى طرفه ولعمره ما حل يوما بابلا

اعتده خوطا لعيشى ناعما فيعود خطيـاً لقتلى ذابلا

وفى سنة 622 اخضع حصن [1] بيران السيد ابو يحيى ابو بكر بن السيد ابى زيد حاكم بلنسية . فنظم ابن الابار القصيدة الاتية يهنىء الوالد بالفتح ويمدحه :

لله قلعة بيـران وعزتهـا على الأعاصر فى ماضى الأعاصير

---

(1) صفحة 60 من كتاب صفة جزيرة الاندلس ، منتخب من الروض المعطار ، نشر ليفى بروفنصال .

عنت ودانت على حكم المنى فرقاً ... من سيد فهوت من ارفع السور
واذعنت وهى الشماء ذروتها ... على حجاج لها من قبل مذكور
ولو أصرت على الاعراض ثانية ... لأصبحت بين تخريب وتدمير
مدت اليك أبا زيد بطاعتها ... يداً مخافة هول منك مشهور
واكدت فى الرضا والصفح رغبتها ... كما تقدم تأييد المقادير
فجدت جودك بالنعمى بما سألت ... من الامان لها طلق الاسارير

وله فى الوصف يعارض الرصافى (1) فى ابياته التى اولها :

«ومهذب الشطين تحسب أنه . . . . . .

ونهر كما ذابت سبائك فضة ... حكى بمجانيه انعطاف الارقم
اذا الشفق استولى عليه احمراره ... تبدى خضيبا مثل دامى الصوارم

---

(1) ذكرنا ترجمة الرصافى فى صفحات سابقة من هذا المؤلف ، ونجد كثيرا من اشعاره فى نفح الطيب ، والاحاطة ، واعلام الاعلام ، ومن شعره ما قاله فى استقبال الامير ابى محمد عبد المؤمن بن علي عندما عبر الى جبل الفتح فى ذى القعدة سنة 555 هـ .

لو جئت نار الهدى من جانب الطور ... قبست ما شئت من علم ومن نور
من كل زهراء لم ترفع ذؤابتها ... ليلا لسار ، ولم تثبت لمغرور
ما زال يقصمها التقوى بموقدها ... صوام هاجرة قوام ديجـــور
حتى اضاءت من الايمان عن قبس ... قد كان تحت رماد الكفر مكفور

وهى طويلة وقد نشرت جميعها فى كتاب اعمال الاعلام صفحة 306.

وتحسبه سنت عليه مفاضة ... لارهاب هبات الرياح النواسم
وتطلعه فى دكنة بعد زرقة ... ظلال لارواح عليه نواعم
كما انفجر الفجر المطل على الدجى ... ومن دونه فى الافق سحم الغمائم

وقال فى وصف روض:

سقيا الروض ردنه رأد الضحى ... وحمامه طرباً يناغى البلبلا
شتى محاسنه ، فمن زهر على ... نهر يسلسل كالحباب تسلسلا
وكأنما حم الربيع لقطفه ... واستل منه يذود عنه منصلا
غربت به شمس الظهيرة لاتسى ... احراق صفحته لهيبا مشعلا
حتى كساه الدوح من افيائه ... برداً تمزق بالاصائل هلهلا
وكأنما لمع الظلام بمتنه ... قطع الدماء جمدن حين تخللا

ومن قوله كذلك فى وصف نهر:

لله نهر كالحباب ... ترقيشه سامى الحباب
يصف السماء بصفاؤه ... فحصاه ليس بذى احتجاب
وكأنما هو رقة ... من خالص الورق المذاب
غازلت فى شطيه أبـ ... ـكار المنى عصر الشباب
والظل يبدو فوقه ... كالخال فى خد الكعاب

لا بل أدار عليه خـــو ف الشمس منه كالنقاب
مثـل المجـرد جـر فيـــها ذيله جر السحاب

وله فى الغزل (1) :

منضور الخد مـــــورده يكسونى السقم مجرده
شفاف الدر له جسد بأبى ما أودع مجسده
فى وجنته من نعمتـــه جمر بفؤادى موقده
ريم يرمى عن احكحله زرقا يصمى من يصمده
متدانى الخطوة من ترف أترى الاحجال تقعده
ولاه الحسن وأمّـــره وأتاه السحر يؤيـــده

ومن غزله :

لم تدر ما خلدت عيناك فى خلدى من الغرام ولا ما كابدت كبدى
افديك من رائد رام الدنو فلم يسطه من فرق فى القلب متقد
خاف العيون فوافانى على عجل معطلا جيده الا من الجيد
عاطيته الكاس فاستحيت مدامتها من ذاك الشنب المسول والبرد

(1) صفحة 226 من الجزء الثانى من فوات الوفيات لمحمد بن شاكر الكتبى.

حتى اذا غازلت أجفانه سنة ... وصيرته يد الصهباء طوع يدى

اردت توسيده خدى وقلت له ... فقال كفك عندى افضل الوسد

فبات فى حرم لا غدر يذعره ... وبت ظمآن لم أصدر ولم أرد

بدر ألم وبدر لافق ممتحق ... والجو محلولك الارجاء من جسدى

تحير الليل فيه اين مطلعه ... اما درى الليل ان البدر طوع يدى ؟

ومن قوله كذلك فى الغزل :

زارنى خيفة الرقيب مريبا ... يتشكى لقضيب منه الكثيبا

رشأ راش فى سهام المنايا ... من جفون تصمى بهن القلوبا

قال لى : ما ترى الرقيب مطلا ... قلت زرنى تجد مكانى رحيبا

واسقنيها بخمر عينيك صرفا ... واجعل الكاس منك ثغرا شنيبا

عاطنى اكؤس الرضاب دراكا ... وأدرها على كوبا فكوبا

ثم لما أن نام من بعد نعس ... وتلقى الكرى سميعا مجيبا

قال : لابد أن تدب اليه ... قلت : أبغى رشا وآخذ ذيبا

قال : فابدأ بنا وثن عليه ... قلت : كلا لقد رفعت قريبا

فوثبنا على الغزال وثوبا ... ودببنا الى الرقيب دبيبا

فهل ابصرت أو سمعت بصب ... نال محبوبه ونال الرقيبا

ومما قاله فى مدح السلطان المستنصر :

جمعت للناس بين الرى والشبع ... فهم بأخصب مصطاف ومرتبع

ولم تدع كرما الا اتيت به ... تضيف مبتدعا منها لمبتدع

لما وليت خلعت الخير اجمعه ... عليهم فبدوا فى أجمل الخلع

لله أيامك استوفت محاسنها ... فلا فضيلة للاعياد والجمع

دامت مساعيك والاقدار تسعدها ... تولى المساجد انصافا من البيع

ومن نظمه قوله فى (1) المجبنات:

بنفسى مثلجات الصدور ... لها سمتان من نار ونور

حوامل وهى ابكار عذارى ... تزف على الاكف مع البكور

كبرد الطل حين تذاق طعما ... وفى احشائها وهج الحرور

لها حالان بين فم وكف ... اذا وافتك رائعة السفور

فتغرب كالاهلة فى لهاة ... وتطلع فى يمين كالبدور

ومن شعره فى شكوى الزمان :

تحيف حالتى حيف الزمان ... وصدق اليأس من كذب الامانى

---

(1) صفحة 266 من الجزء الثالث من ازهار الرياض. والمجبنات هى انواع من الاطعمة اللبنية تعمل بالسكر، وتثلج بوضع الثلج عليها، وكانت من اطعمة الاندلس المشهورة .

وبرت فى أليتها الليالى بترويعى (1) فانى بالامان
أما قنعت وقد كلفت بهضمى وضيمى دون ابناء البيان
أحاول أن أقوم لما يواتى فتقعدنى الخطوب بلا توانى
وأطباق الثرى بالحر أحرى اذا الفى الثراء من الهوان
فهل من آخذ بيدى أخيذ بعين الله (2) شدة ما يعانى
أيامى اشتكيه من أيامى عوار فى يد البلوى عوانى
وما أبغى على تلفى دليلا كفانى أننى حى كفانى

وقال فى المعنى نفسه :

يعيرنى قومى بجفوة سلطانى ويشفيهم شكوى بنبوة أوطانى
يرون خمولا عطلتى لتوقفى وتلك على محض النباهة برهانى
وقالوا: خفون قلت: لابل رجاحة كفتنى القاء بكفى لاذعان
اذا عهدونى للمنى راكبا فصعب الاسى سهل وان هد اركانى

وقال يخاطب نفسه :

الام فى حل وفى ربط تخبط جهلا أيما خبط ؟

---

(1) ازعاجى وافجاعى .
(2) اى ان ما يعانيه عليه دليل ومشاهد ومعاين من الله .

دع الورى، وارج اله الورى فانه ذو القبض والبسط
ليس لما يعطيه من مانع ولا لما يمنع من معط

وقال فى الشوق الى ضريح النبي صلى الله عليه وسلم :

لو عن لى عون من المقدار لهجرت للدار الكريمة داري
وحللت اطيب طينة من طيبة جاراً لمن أوصى بحفظ الجار
حيث استبان الحق للابصار لما استثار حفائظ الانصار
يا زائرين القبر قبر محمد بشرى لكم بالسبق فى الزوار
أوضعتموا النجاتكم فوضعتموا ما آدكم من فادح الاوزار
فوزوا بسبقكم وفوهوا بالذى حملتكم شوقا الى المختار
أدوا السلام سلمتموا وبرده أرجو الاجارة من ورود النار

وقال تكريما ومدحا وتقربا لمثال(1) نعل النبى صلى الله عليه وسلم :

لمثال نعل المصطفى أصفى الهوى وأرى السلو خطيئة لن تغفرا
واذا أصافحه وأمسح لاثما اركانه فمعززا وموقرا

---

(1) هو تجويف فى بعض الاحجار يزعم بعض الناس ان قدم النبي غاصت فيه فترشحت هذا الاثر المجوف. ونجد فى بعض الكتب، كما فى ازهار الرياض (الجزء الثالث) رسما لهذا التجويف. وقد نظم فيه الشعراء القصيد تقربا وتوددا وتحببا وتوسلا.

ان شاقنى ذاك المثال فطالما ... شاق المحب الطيف يطرق فى الكرى

لى اسوة فى العاشقين وقصدهم ... لثم الطلول لاهلهن تذكرا

وبكاؤهم تلك المعاهد ضلة ... تحت الظلام على الغرام توفرا

أفلا أمرغ فيه شيبى راشدا ... وأريق دمعى وسطه مستبصرا؟

ثقة باثرائى من الخيرات فى ... شفعى بنعلى خير من وطئ الثرى

وقال فى المعنى نفسه :

مثال الى نعل المطهر يعتزى ... باعزازه الحسنيين مثال

أقبله شوقا تملكنى لما ... حكى وشهيدى لو يفوه قبال

والى اشتراك فى التزام شراكه ... وحسبى منه عصمة ومنال

ومعقده مما عقدت به الهوى ... فلا صح عزمى ان صحا لى بال

مرادى من تمريغ شيبى عليه ان ... تسح من الرحمى على سجال

ومن وضعه فى حر وجهى ورفعه ... لقمة رأسى ان يعز مآل

فأحظى بحظى من جوار محمد ... وهل بعد تنويل الجوار منال؟

هذا بعض شعر ابن الابار، أتينا به هنا كما عثرنا عليه، وليس كل شعره، فان صاحبنا لم يترك لنا ديوان شعر مجموع.

وهو - كما قلنا - لم يتخذ الشعر مهنة يعيش منها (1) ، فلم تكوّن حياته الشعرية جزءا كبيرا من حياته الاجتماعية او الثقافية . ولكن هذا البعض على قلته جدير بالدراسة .

ان الموضوعات التى تناولها الشاعر فى قصائده يمكن وصفها بأنها : فى الاستغاثة، والمدح - مدح الولاة او الاصدقاء - والرثاء، والوصف ، والغزل ، والشكوى من الزمان وسوء الحظ ، والتوسل الدينى . فهو اذاً قد تناول من أغراض الشعر المعروف المألوف فى عصره، ولم يأت بجديد ، ولم يكن صاحب مذهب خلقى او شعرى فلسفى خاص به : لم يكن متشائما كأبى العلاء، او معجبا بنفسه مغرورا كالمتنبى، أو مغرما بالمجون والخمريات كأبى نواس (2) ، او صوفيا زاهدا كابن العربى، او وصافا بارعا كابن هانىء ، او مغرقا فى الغزل كابن سهل . كلا لم يكن من

---

(1) كانت مهنة التكسب بالشعر شائعة فى الاندلس كما فى المشرق من ذلك ابن دراج القسطلى الذى كان يمدح الملوك والناس ، من يعرف ومن لا يعرف .

(2) وعبد الجليل بن وهبون الاندلسى فقد كان ماجنا طروبا يميل الى اللهو والغلمان وتضمن شعره الكثير من ذلك

رجال الشعر الفنيين ، وانما كان من عشاقه ، ولذلك تناول منه ما عن له ، وما دعت الحاجة اليه، وما أحس بالرغبة فى قرضه. وهذا هو السر فى أنه - على اقلاله - تناول من ابواب الشعر كل باب او غرض . وليس هذا مما يقلل من قيمة انتاجه الشعرى ، فهو اديبا اكثر منه شاعرا . وهو قد زاول الشعر من كثرة حفظه واطلاعه وامتلائه بأقوال الشعراء، لانتيجة لعبقرية شعرية مبتكرة .

لهذا لانجد فيما لدينا من شعره معانى جديدة ، فكل ما جاء به مألوف مطروق. وان القارىء لقصيدته الشهيرة : «أدرك بخيلك خيل الله أندلساً » لايجد فيها فكرة مبتكرة او صورة بارعة . وكل ما فيها أنها تثير فى نفس قارئها أسى وحسرة للذكريات التى ترتبط بها ، وللعاطفة الدينية التى توقظها الحوادث المؤلمة التى اصابت المسلمين فى تلك البلاد . فهى اذاً قصيدة وجدانية خاصة، يهتز لها المسلم حزنا، وتذرف لها عيناه حسرة . وهى سجل خالد لما اصاب المسلمين فى اواخر ايامهم بالاندلس . ونصيبها من الخلود شبيه بنصيب امثالها، كتلك التى

نظمها صالح [1] بن شريف الرندى :

لكل شىء اذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش انسان

هى الامور كما شاهدتها دول ... من سره زمن ساءته ازمان

وهذه الدار لاتبقى على احد ... ولا يدوم على حال لها شان

يمزق الدهر حتما كل سابغة [2] ... اذا نبت مشرفيات وخرصان

ويقتضى كل سيف [3] للفناء ولو ... كان ابن ذى يزن والغمد غمدان

وهى قصيدة طويلة ملآى بالصور الوجدانية المحزنة .

ولم تكن قصيدة ابن الابار فريدة فى بابها او معانيها . فالمقرى يقول لنا فى نفح الطيب [4] : «ولم يزل اهل الاندلس بعد ظهور النصارى على كثير منها يستنهضون عزائم الملوك والسوقة لاخذ الثار ، بالنظم والنثار. فلم ينفعهم ذلك، حتى اتسع الخرق،

---

(1) وقد ذكرها عدد من الكتب مثل : نفح الطيب صفحة 189 من الجزء الثانى ، وازهار الرياض فى اخبار عياض صفحة 47 من الجزء الاول .

(2) السابغة : الدرع الكامل والمشرفيات السيوف المنسوبة الى المشارف وهى قرى من ارض العرب . والخرصان جمع خرص وهو الرمح .

(3) أى حتى ولو كان سيف بن ذى يزن البطل المشهور وملك اليمن وغمدان قصره .

(4) ص 588 من الجزء الثانى .

وأعضل الداء أهل المغرب والمشرق . فمن القصائد الموجهة فى ذلك قول بعضهم ـ لما أخذت بلنسية ـ يخاطب صاحب افريقية ابا زكرياء عبد الواحد بن ابى حفص :

نادتك اندلس فلب ندائها ... واجعل طواغيت الصليب فداءها
صرخت بدعوتك العلية فاجبها ... من عاطفاتك ما يقى حوباءها
واشدد بجلبك جرد خيلك ازرها ... تردد على اعقابها ارزاءها

وفى قصيدة ابن الابار السينية يقول ابو سعيد فى كتاب «القدح المعلى» (1) : «وعارضه جمع من الشعراء، ما بين مخطىء ومحروم . وأغرى الناس بحفظها اغراء بنى تغلب بقصيدة عمرو بن كلثوم» .

وقصيدة ابن الابار ـ هذه ـ مؤثرة محزنة لانها صادرة من القلب، وتخاطب القلوب والعواطف .

وكان ابن الابار وفيا برا، بأصدقائه وأساتذته . وكان يحمل لاستاذه ابى الربيع بن سالم الكلاعى كل تقدير واعجاب،

(1) صفحة 205 من الجزء الثانى من نفح الطيب، الطبعة الاوربية (طبعة ليدن)

ويدخر له كل حب . ولم يكن ابو الربيع رجل علم ودين وتقوى فحسب، بل كان رجلا وطنيا متحمسا، وبطلا مجاهدا . خرج للدفاع عن وطنه، ولم تقعده شيخوخته اذ كان فى سن السبعين، فاستشهد مع غيره من المجاهدين فى موقعة انيجة وكانت (1) الموقعة محزنة ومهددة بالزوال . وكانت الحال مثيرة دافعة الى انطلاق الالسنة بالرثاء والعيون بالبكاء . فلا غرو ان يرثى ابن الابار استاذه ومن استشهدوا معه، ويصف ما شاهده بعد الموقعة . وهو فى وصفه ورثائه لم يبتكر معنى جديدا، بل وصف ما رأى، وعبر فى بساطة من المعانى عما احس . ألا تسمعه يقول:

ألما باشلاء العلا والمكارم ... تقد باطراف القنا والصوارم

وعوجا عليها مأربا ومغازة ... مصارع خصت بالطلا والجماجم

نحيى وجوها فى الجنان وجيهة ... مجاسد من نسج الظبا واللهازم

ومنها كذلك ما ذكرناه قبل:

أضاعهم يوم الخميس حفاظهم ... وكرهم فى المأزق المتلاحم

والقصيدة طويلة وقد ذكرها جميعها لسان الدين ابن

---

(1) كانت فى ذى الحجة سنة 634 هـ .

الخطيب فى كتاب الاحاطة. وكذلك نشرها الاستاذ «هـ. ماسى» فى ترجمة ابى الربيع الكلاعى، فى مقدمة كتاب الاكتفاء فى سير النبى والثلاثة الخلفاء، الذى نشره بالجزائر سنة 1931 م.

اما وصفه للنهر والروض فقد عارض فى بعض وصفه للنهر الرصافى. والمعارضة نوع من المحاكاة والصناعة التى يتخذ فيها المعارض انتاج من سبقه نموذجا يحاكيه او يفوقه. والمعارض حريص كل الحرص ان يغالب المعارض فيغلبه. فالوحى - أو الحافز - فى هذه الحال امر خارجى ليس فى صميم الموضوع المعالج. وشبيه بهذا التلميذ فى المدرسة يتفوق فى مادة من مواد الدراسة لا لانه يحبها او يفرح بها، ولكن ليفوز بالجائزة. وهذا الحافز - عندى - صناعى غير طبيعى. ومع هذا فتشبيه الماء فى صفائه بالفضة المذابة، والنهر فى التوائه بالتواء الاراقم شىء مألوف فى الادب العربى. وفى قوله:

كما انفجر الفجر المغلل على الدجى ومن دونه فى الافق سحم الغمائم

صورة ومعنى قريب مما قاله ابن خفاجة:

وفى مصطلى الآفاق جمر كواكب علاها من الفجر المطل رماد

ووصف ماء النهر بالصفاء، وانه كالمرآة ، يعكس ما فوقه ويره ، ليس جديدا فى الشعر العربى . من ذلك قول بعضهم :

بنهر كالسجنجل كوثرى تعبس وجهها فيه السماء

وقد عارض هذا البيت ابو اسحاق ابن خفاجة فقال :

اذا بدت الكواكب فيه غرقى رأيت الماء تحسده السماء

وقد يجد القارىء فى قول المتنبى عند ما كان يصف شعب بوان :

وألقى الشمس منها فى ردائى دنانيرا تفر من البنان

صورة لتساقط قطع الشمس المضيئة على ثوبه كالدنانير ، وهى صورة ابدع من تلك التى يعرضها ابن الابار بقوله :

وكأنما لمع الظلام بمتنه قطع الدماء جددن حين تخللا

اما ان ابن الابار قد نظم فى الغزل نظما رقيقا مطربا فهذا ليس غريبا او عجيبا ، بالرغم من اننى نفيت عنه ان يكون ماجناً اولاهيا او عابثا . فحقيقة الحال هى ان لابن الابار ـ كما لكل البشر ـ عاطفة جنسية تحس هذه العاطفة به فى المرأة من جمال وجاذبية واغراء وتضعف هذه العاطفة امام المرأة الجميلة الجذابة المغرية . وتضعف هذه العاطفة وتلين فى فترات خاصة

من فترات الحياة، هى فترات المراهقة والشباب، والفترات التى يمل فيها الانسان الجد الدائم، فيقصد الى اللهو ترويحا للنفس : لئن كنت محتاجا الى الجد اننى الى اللهو فى بعض الاحايين احوج وابن الابار لابد مرّ بهذه الفترات . فقد كان مراهقا وشابا، وقد مل احيانا حتما حياة الجد وبحث عن لحظات للترويح والعبث الجنسى . وهو لا بد قد وجد من جميل النساء من يوقظ شيطان شعره، ومن يلهمه، فكتب او نظم الشعر، شعر الغزل الرقيق الذى اوردناه . وهذه ظاهرة طبيعية تعرض لكل انسان فى حياته ويبدو اثرها فى سلوكه وتصرفاته وتعبيره . ولم يكن ابن الابار ملاكا فيمتنع عن مغازلة النساء او وصفهن او الخلوة باحداهن او مراودتها . نعم حدث له شىء من هذا ولكنه لم يصر طبعا له، وسجية ملازمة، وانما كان ما حدث أمراً عارضا له ظروفه وملابساته الطبيعية والاجتماعية . ولهذا نعود فنقول مرة أخرى : ان ابن الابار لم يكن ماجنا او رجل لهو وطرب، ومجالس شراب وسمر، بل كان رجل جد ووقار وخير. ولا يطعن فى هذا ما ورد من شعره فى النساء وعشرتهن

ومسهن .

ووصفه الخد بالورد ولحظات العيون بالسهام ليس جديدا في الادب العربي. فقد قال ابن سهل وهو من معاصري ابن الابار :

فقلت : اشم من خديك وردا فقال : وما تضم الوجنتان

فقلت : اخاف صدغك ان يرانى وما انا من لحاظك في أمان

وقال جرير :

ان العيون التى فى طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

وقال ابن عبد ربه :

ياسقيم الجفون من غير سقم بين عينيك مصرع العشاق

واذا كان سلوك ابن الابار الذى ابداه فى اولى قصائده الغزلية التى يقول فيها :

فبات فى حرم لا غدر يذعره وبت ظمآن ثم أصدر ولم أرد

اذا كان سلوكه هذا يدعو الى الاعجاب بأخلاقه وضبطه نفسه ، فان سلوكه فى القصيدة الغزلية الثانية مخجل ، وجرأته على اعلان هذا السلوك اكثر اخجالا .

ومن السهل أن يقول قائل ان هذه القصيدة ليست لابن

الابار، ولا تتفق وخلقه ووقاره ودينه وتقواه . هذا أمر سهل القول ولكنه ليس سهل الاثبات. ومن حفظ، حجة على من لم يحفظ .

وليس ابن الابار فى شكوى الزمان مبتكرا ، فغيره قد نكب مثله ، وأصيب فى كرامته، وتكاثر عليه الحساد والاعداء وغيره شكا الزمان، وتنكر الخلان ولا بد ان يكون ابن الابار نظم هذه الشكوى فى توتس عندما تغير عليه السلطان أبو زكريا أو ابنه المستنصر. وشبيه بشكواه شكوى ابن حمديس الصقلى:

تدرعت صبرى جنة للنوائب فان لم تسالم يا زمان فحارب
عجمت حصاة لا تلين لعاجم ورضت شموسا لا يذل لراكب
كأنك لم تقنع لنفسى بغربة اذا لم أنقب فى بلاد الاغارب
فطمت بها عن كل كأس ولذة وانفقت كنز العمر فى غير واجب

الى أن قال :

ولما رأيت الناس يرهب شرهم تجنبتهم واخترت وحدة راهب

وشعر ابن الابار فى المديح والشوق الى زيارة الرسول لا يقارن بما كتب فى الموضوع من مدائح وتشوقات . ولكنه مع ذلك

شعر منبعث عن اخلاص وحب صميم ، شعر كتب فى وقت شعر فيه ابن الابار بالحاجة الى من يعتمد عليه ، ومن يلجأ اليه ليحميه ويضمن له السلامة، شعر كتبه فى كهولته أو شيخوخته بحرارة وحماس. وهو يقول :

أفلا أسوغ فيه شيبى راشدا وأريق دمعى وسطه مستبصرا؟

اما أسلوب ابن الابار الشاعر فهو قريب من اسلوب ابن الابار الناثر. انه يتخير من الكلمات ما يروقه لحسن جرسه أو مناسبة سجعه، أو لما فيه من محسنات لفظية أو معنوية. وكأنه نقل أسلوب النثر الى الشعر، استمع اليه وهو يقول :

فى كل شارقة الملام بائقة يعود مأتمها عند العدا عرسا

وكل غاربة احتمال شائبة تشنى الامان حذارا والسرور أسى

. . . . . .

مدائن حلها الاشراك مبتسما جذلان وارتحل الايمان منبئسا

وصيرتها العوادى العابثات بها يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا

فهو قد أتى فى هذه الابيات بسجعات حتى فى البيت الواحد، كما فى البيتين الاول والثانى، وبطباق فى قوله: «مأتم»

«وعرس». وفى قوله «جذلان» و«مبتئس» و«يستوحش» «أنسى»

وهو يستعمل الجناس التام او الناقص مثل ما كان يستعمله فى النثر، من ذلك قوله :

كانت حدائق للاحداق مونقة فصوح النصر من ادواحها دعسا

وحال ما حولها من منظر عجب يستجلب الركب أو يستركب الجلسا

وقوله : ريم يرمى عن اكحله زرقا يصمى من يصمده

وقوله :

أياما اشتكيه من أيامى عوار فى يد البلوى عوانى

واذا كنا لاحظنا فى اسلوبه النثرى تعمقا فى اختيار الالفاظ المهجورة، وقليلة الاستعمال؛ فمن الحق ان نقول ان اسلوبه فى الشعر أقل اثقالا بهذه الكلمات المهجورة . ومن السهل على القارىء العادى ان يتتبع شعره ويفهمه أكثر مما يتتبع بعض قطعه النثرية لا سيما رسائله .

والخلاصة أنه فى اسلوبه الشعرى عمد - كما عمد أمثاله من الشعراء الكتاب - الى استعمال كثير من المحسنات اللفظية . وعمل لاسلوب الكتابة اثراً فى اسلوب الشعر .